التواصل الأدبي

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بقضايا الأدب و النقد

تصدر عن مخبر الأدب العام و المقارن
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
جامعة باجي مختار / عنابة (الجزائر)

العدد الرابع

جوان 2013

التواصل الأدبي

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بقضايا الأدب والنقد

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بقضايا الأدب والنقد

تصدر عن مخبر الأدب العام والمقارن

إدارة المجلة: أ.د. عبد المجيد حنون

رئيس التحرير: د. مُحَمَّد بلواهم

أمانة التحرير:

- د. نظيرة الكنز
- د. هجيرة لعور

منشورات مخبر الأدب العام و المقارن

العدد الرابع جوان 2013

جامعة باجي مختار / عنابة (الجزائر)

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

مخبر الأدب العام والمقارن

العنوان: مخبر الأدب العام والمقارن،

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار / عنابة

ص.ب. 12 عنابة – 23000 / الجزائر

الهاتف والفاكس: 84.51.49(038) / 84.75.25(038)

الموقع الالكتروني: LLGC.univ-annaba.org

أعضاء اللجنة الاستشارية

رئيس التحرير:

د. مُحَمَّد بلواهم

الأعضاء:

1. أ.د.عبد المجيد حنون
2. أ.د. صالح ولعة
3. أ.د. إسماعيل بن اصفيه
4. د. عمار رجال
5. د. علي خفيف
6. د. نظيرة الكنز
7. د. نسيمة عيلان
8. د. هجيرة لعور

أعضاء الهيئة الاستشارية:

1. أ.د.مختار نويوات (جامعة عنابة)
2. أ.د. عبد الحميد بورايو (جامعة الجزائر)
3. أ.د. الطيب بودربالة (جامعة باتنة)
4. أ.د.عبد الواحد شريفي (جامعة وهران)
5. أ.د. عز الدين مخزومي (جامعة وهران)
6. أ.د.حبيب منسي (جامعة سيدي بلعباس)
7. أ.د. عيسى بريهمات (جامعة الأغواط)
8. أ.د. أحمد منور (جامعة الجزائر).

شروط النشر في المجلة

1. تنشر المجلة البحوث والدراسات العلمية التي تعنى بقضايا الأدب العام والمقارن والنقد والترجمة، وتتسم بالعمق والجدّة والأصالة.

2. ترسل الدراسات في نسختين وقرص مدمج، ويكون حجم المقال في حدود (20) صفحة مقاسها 16×24، مع كتابة الإحالات والمراجع مرقمة في آخر المقال.

3. تكتب المقالات بخط (Traditional Arabic) من عيار 16، وبرنامج (Microsoft Word)، أو نظام (RTF).

4. ينبغي أن ترفق المقالات بملخص تحدد فيه الإشكالية وأهم العناصر والأهداف المتوخاة من الدراسة.

5. تخضع المقالات للتحكيم العلمي من الهيئة العلمية.

6. تقوم هيئة التحرير بإخطار أصحاب المقالات في حالة عدم النشر لسبب من الأسباب.

7. المقالات لا تردّ إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

8. المقالات المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن المجلة.

9. يتحصل أصحاب المقالات على نسخة من المجلة وخمس مستلات من المقال.

10. ترسل المواد إلى رئيس تحرير مجلة التواصل الأدبي، مخبر الأدب العام والمقارن، العنوان : كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة باجي مختار/ عنابة ، ص.ب 12- عنابة. 23000/الجزائر.

الهاتف والفاكس: 84.51.49(038) / 84.75.25(038)

الموقع الالكتروني: LLGC.univ-annaba.org

الافتتـاحية

الخطابات الأدبية بين التفاضل و التكامل

أمـا قبـــل ؛

فها هي مجلة التواصل الأدبي تكمل مربعها الأول بعد انقطاع طويل، كان نتيجة طبيعية لسلسلة من العقبات أخرت ظهور هذا العدد الرابع بخاصة، وكأن حلت به اللعنة اليونانية التي قادت أوديب إلى مصيره المأساوي وفق ما جاء في الأسطورة.

ولكن وبعد لأيٍ، ذللت تلك العقبات بفضل صلابة عزيمة القائمين على شأن المجلة وإصرارهم على قيادة السفينة إلى المرافئ الآمنة، وهي رسالة واضحة الدلالة، تطمئن قراء المجلة من جهة، وتؤكد من أخرى أنها ماضية في سبيل نشر رسالتها المعرفية التنويرية، لتعميق الوعي بالكتابة الأدبية وبطرق مقاربتها.

وأمـا بـعـد ؛

فإن مدار هذه الافتتاحية على قضيتين:

أهدف من خلال الأولى إلى توضيح أيهما أنسب إلى الأدب "التفاضل" أم "التكامل" ؟، وأُجلّي هذه الفكرة من خلال الثانية (قراءة في العدد) بوقفة نقدية عند بحوث هذا العدد.

يدل التفاضل على تفوق عنصر على آخر أو قيمة على أخرى، فيكون الفاضل في مرتبة أعلى والمفضول في مرتبة أدنى، ويتجلى ذلك على صعيد الخطاب الأدبي في الإعلاء من قيمة خطاب، فيوصف بالجودة ويطامن من قيمة آخر فيوصف بالرداءة.

واللافت أن صفتي الجودة والرداءة هما صفتان نسبيتان لارتباطهما بالمتلقّين، فواحد يُعلي من قيمة خطاب ما في حين يحطّ آخر من قيمة هذا الخطاب نفسه فيرمي به في أسفل الدركات.

وعلى هذا الأساس يحمل كل خطاب الصفة ونقيضها، فهو جيّد ورديء في آن، ممّا يقتضي وضع كل الخطابات الأدبية في درجة واحدة من سلم القيم، وبالتالي تصنّف تصنيفاً أفقيًّا بدلاً من التصنيف الرأسي التفاضلي.

يدلّ التكامل على تكافؤ الخطابات وتناظرها، فلكل خطاب أهميته لأنه يعدّ إضافة إلى التجربة الأدبية ممّا يقتضي تضامن هذه الخطابات على تعدّدها واختلافها لتشكل في النهاية خطاباً شاملاً، يستوعب كل التجارب بدلاً من الإقصاء.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى الفرق البيّن بين تكامل الخطابات ها هنا وبين شمولية الخطاب عند دعاة نظريات الخطاب (من أمثال: "هاريس" و "إيست هوب، وغيرهما...") الذين اعتبروا كل ما ينتجه الناس خطاباً سواء أكان ذلك خطاباً أدبياً أو فلسفياً، أو دينياً، بما في ذلك خطابات أهل المهن والصناعات. فوضعوا بذلك أعمال "شكسبير" و "إدغارد ألان بو" و "دايسكوفسكي" في مرتبة واحدة مع خطابات أصحاب المهن وكل الفئات الاجتماعية، لأنهم ركّزوا على الاتصال أو التواصل وأغفلوا الجانب التشكيلي الذي يميّز الأدب عن غيره.

في حين أن التكامل الذي أقصده ها هنا هو تكامل الفنون أو تكامل يتم على صعيد العناصر التي تكوّن دائرة الفن عموماً والتي ينبغي أن توضع خطاباتها في أعلى درجات سلّم القيم.

وتأتي وجاهة هذا الطرح من العلاقات القوية التي تربط بين الفنون جميعها، ومن أمثلة ذلك التداخل بين فني الشعر والرسم إلى درجة جعلت قدماء اليونان يعرفون الشعر بأنه رسم ناطق والرسم بأنه شعر صامت، ولم يفلح الناقد الألماني

"ليسينغ" الذي حاول في القرن الثامن عشر طمس العلاقات بين فني الرسم والشعر مبرزاً الفوارق الجوهرية بينهما، ولكن النقاد الذين جاءوا من بعده أعادوا الاعتبار إلى هذه العلاقة، فأكّد "بودلير" (ق19) ذلك بقوله: ((ومن المظاهر المميّزة للوضع الروحي في قرننا أن الفنون جميعاً تنزع نحو تعزيز أحدهما الآخر في أقل تقدير)) {جيفري ميزر: اللوحة والرواية}، ويرى "بروست" أن الرسم ينافس الشعر في الكشف عن جواهر الأشياء.

ويعزز "جيفري ميزر" اعترافات الروائي "د.هـ. لورنس" في بحثه "صناعة الصورة" أن الرسم يشكل مصدراً يستقي منه الروائيون أعمالهم الروائية، حيث تحولت لوحات كثيرة إلى أعمال روائية مثل لوحة "دوامة الخيل" لـ "مارك غيزيتلر" التي حولها "د.هـ. لورنس" إلى رواية "نساء عاشقات"، ومثل لوحة "المسيح داخل القبر" لـ "هولباين" التي حولها "دايسكوفسكي" إلى رواية "الأبله".

وأما على صعيد العلاقات البينيّة {أدب/أدب} فإنها تكون أكثر اتساعاً وتداخلاً، وهو ما كشف عنه البحث في قضية السرقات الأدبية قديماً وأكده مفهوم التناص حديثاً، وفي هذا السياق نشير إلى أثر رواية 'دايسكوفسكي': "الإخوة كرامازوف" على رواية 'طوماس مان' "الدكتور فاوست" حيث اعتبر حوار "أدريان" مع إبليس صورة لحوار "إيفان" مع الشيطان في "الإخوة كرامازوف"، وهذا غيض من فيض.

وفي ضوء ذلك يصبح البحث عن الفَرَادة في النص الأدبي أمراً غير ميسوراً إن لم يكن مستحيلاً، فالخطابات الأدبية إما أشباه أو نظائر، مما يجعل فكرة التكامل أمراً منطقياً تفرضه علاقات الخطابات الأدبية ببعضها بصرف النظر عن اختلاف مذاهبها وأجناسها الأدبية.

وينسحب هذا المفهوم على الخطابات النقدية التي ينبغي أن تُراعى خصوصية كل خطاب لتشكل خطاباً نقدياً شاملاً تتضافر فيه كل الخطابات على اختلافها.

لا مِراء في أن هذه الخطابات تنشأ بدافع حاجات البحث المتنوعة، حيث يصبح كل منهج ضرورة من الضرورات لحل معضلة لا يمكن لغيره أن يقوم بها. فالحاجة التي دفعت "فرويد" إلى اصطناع المنهج النفسي بدلاً من المنهج السيري هي أنه يدرس شخصية غير سوية وبالتالي فهو يبحث عن عقدة نفسية هي سبب الإبداع عند المبدع وهذا أمر لا يتأتّى لمطبقي المنهج السيري الذي يدرس شخصية سوية، ولا مِراء أيضا في أن النظريات المتجهة إلى المبدع لا يمكن أن تحلّ محلّ النظريات المتجهة للمتلقي بالرغم من تماثلهما فكل منهما يرى أن النص يمثل شيئاً خارجاً عنه مبدعاً أو متلقياً، فكل يبحث عن شيء ضاع له في النهر، وبالتالي فتماثلهما لا يلغي المسافة بينهما، فشتان بين من يبحث عن صورة "امرؤ القيس" في شعره وبين من يبحث عن صورته في شعر "امرؤ القيس".

ومن هذا المنظور يمكن استثمار "النسقية التاريخية" و"النسقية النصية" {التعبير لـ : جيزيل فالانسي} في الدراسة الأدبية لأن كل منهما يغطي جانباً لا يغطيه الآخر، فالنسقية التاريخية تمكّن من البحث عن ظاهرة في الزمان من الومضة إلى النص على غرار ما قام به "بيير دي بيازي" في النقد التكويني حيث قسم ميلاد النص إلى أربع مراحل سمّاها:

1. مرحلة ما قبل الكتابة
2. مرحلة الكتابة
3. مرحلة ما قبل الطباعة
4. مرحلة الطباعة

في حين أن النقد النصي يتوسع في دراسة حالة ساكنة، فيبحث في العناصر التي شكلت هذا النص أو ذاك، فتكاملهما يؤدي إلى دراسة مراحل تكون الإبداع ومرحلة تجلّي الإبداع.

قـراءة في العـدد:

يتشكل هذا العدد الرابع من مجموعة من الأبحاث تنوعت بين التنظير والتطبيق والترجمة:

1. يعالج المحور النظري قضية التعالقات النصية كما يتبدى في دراسة "موسى مريان" في السّرِقات الشعرية وأنواعها، وكما يتبدى في دراسة "مُحَمَّد رضا بن طبوله" عن علاقات النصوص في الشعرية العربية.

2. ويضم محور الترجمة بحثاً لـ "سيمون فريس" (ترجمة: عبد المجيد حنون) توضح فيه الباحثة الحاجة إلى أسطرة الواقع.

ويضم المحور التطبيقي تسعة دراسات مختلفة اختلاف الإشكاليات المطروحة وطرق مقاربتها، وتتميز هذه الدراسات بثلاث ميزات رئيسة هي:

1. تنوع المناهج، حيث شملت المنهج الأسطوري الذي استعان به كل من "نظيرة الكنز" و "سامية عليوي" و"عبد الحليم منصوري"، والمنهج الاجتماعي كما يبدو في دراسة "رضوان عجاج إيزولي"، و"إسماعيل بن اصفية" و"صالح ولعة"، والمنهج التداولي الذي استعان به "علي خفيف" و"راضية بوبكري"، والمنهج السيري الذي اقتضته دراسة "عمار رجال".

2. تنوع الأجناس الأدبية مدار الدراسات وشملت الشعر، والمسرح، والرواية، والخطبة، والمذكرات، فضلاً عن الخطاب السياسي.

3. تنوع المصادر التي استقى منها الأدباء مادتهم لتشكيل إبداعاتهم، فلجأ بعضهم إلى الأسطورة، و وظف آخرون التاريخ، ولجأ البعض إلى الراهن الذي يشكل حياتهم اليومية واستقوا منه مادتهم.

ولكن خلف هذا التنوع (المناهج – الأجناس – مصادر التجربة) تقبع قضية جوهرية يتقاطع فيها الجميع، وهي اعتبار النص بنية دالّة وليس مجرد تشكيل لفظي، وبتعبير الفلاسفة فإنهم يرون الأدب وسيلة وليس غاية في ذاته، يتبدّى ذلك في سعي كل دراسة إلى إبراز الدور الفاعل الذي يضطلع به الأدب في حياة الأمم. ولكن كل دراسة وضعت إستراتيجية خاصة بها حفظت لها حدودها كما يتجلى في تتبع كل دراسة على حده.

- تكشف دراسة "نظيرة الكنز" عن تكاتف المخيال الأدبي مع النصوص المؤسسة في رسم صورة النبي "سليمان"(عليه السلام) مما يدل على تشارك الأدب والتاريخ والنصوص المقدسة.
- وترى "سامية عليوي" أن "نزار قباني" وظف رمز "شهرزاد" لتحدّث عن وضع المرأة العربية التي ينبغي أن تثور على واقعها وتكسر قفص الحريم، لتحقيق إنسانيتها.
- ويصب بحث "عبد الحليم منصوري" في هذا المجرى حين يكشف عن توظيف بعض الرموز الأسطورية اليونانية للتعبير عن الواقع الجزائري.
- ويتواشج الحسّي والمعنوي في الشعر الصوفي كما يراه "رضوان عجاج إيزولي" لتبليغ رسالة ما، وبالتالي ليس الشعر مجرد شطحات صوفية بلا دلالة.
- ويطرح "إسماعيل بن اصفية" قضية الالتزام في مسرح "الشرقاوي" الذي كشف عن وعي سياسي واجتماعي في مسرحية "ثأر الله".

- ويشاركه "صالح ولعة" من خلال "خطاب المدينة" حيث يعتبر الفنان مؤرخاً يحفظ الذاكرة التاريخية من عبث الأقلام المأجورة.
- ويكشف "علي خفيف" أن تواشج الشعرية والتاريخ والسياسة كان سبباً في تأثير "طارق بن زياد" في مُتلقّيه الذين سارعوا إلى الجهاد.
- وترى "راضية بوبكري" أن الأبعاد الإنسانية تعدّ من استراتيجيات الخطاب السياسي إلى جانب قضايا أخرى.
- ويعد "عمار رجال" مذكرات "أندريه جيد" وثيقة تاريخية مهمة تسهم في رسم صورة الجزائر من خلال بعض مدنها في مرحلة تاريخية معينة.

يؤدي تكامل هذه الدراسات إلى تشكيل خطاب نقدي متعدد العناصر كصورة تناسقت ألوانها ، وهو ما لا يحققه "التفاضل" القائم على الإقصاء.

ولهذا ينبغي أن تُصرَف عناية الباحثين في هذا المجال إلى الكشف عن الأماكن المظلمة التي يثيرها كل منهج، وبالتالي البحث عمّا يضيفه كل واحد إلى التجربة النقدية. وهو ما يؤدي بالتالي إلى تجنب الأحكام التفاضلية التعسفية المخالفة لمنطق البحث، لأنها تعتمد معايير غير فاعلة مثل المعيار الزمني والانتصار لأحد الطرفين ، إمّا القديم وإما الحديث. كما يتجلى في الثنائيات حديث/قديم، أو جديد/تقليدي. ويمكن الاحتكام إلى معيار حضاري: تقدم/تخلف، وهو ما يؤدي إلى إفقار التجربة النقدية. بينما يؤدي التكامل الذي يقرّ مبدأ التكافؤ بين الخطابات غلى إغنائها. وقد كشف "مالكوم كاولي" عن أهمية التكامل حين شبه تعدد الممارسات النقدية وتنوعها ببيت متعدد النوافذ، وهو تشبيه يجسد واقع الإبداعات أيضاً.

رئيس التحرير:

د. مُحَمَّد بلواهم

الفهرس

الافتتاحية.....5-11

الفهرس.....12- 13

أولاً: الدراسات:

1. نظيرة الكنز 14

سليمان ((عليه السلام)) في الأدب العربي بين النصوص المؤسسة والمتخيلة

2. سامية عليوي 39

من الأنوثة والجمال إلى الثورة والخلاص، شهرزاد في شعر نزار قبّاني – دراسة نقدية أسطورية

3. عبد الحليم منصوري 66

ملامح أساطير إغريقية في رويات جزائرية – دراسة نقدية أسطورية

4. رضوان مُحَمَّد سعيد عجاج إيزولي 83

تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي " أبو مدين التلمساني أنموذجاً "

دراسة تتناول العلاقة بين الحب الصوفي والحب العذري

5. إسماعيل بن اصفية 112

وقائع الماضي وجراحات الحاضر في مسرحية " ثأر الله " لعبد الرحمن الشرقاوي

6. صالح ولعة 131

خطاب المدينة ؛ قراءة في "عالم بلا خرائط " جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف

7. علي خفيف 149

خطبة طارق بن زياد بين الشّعرية والسياسة والتاريخ – دراسة تداولية

8. راضية بوبكري 167

الخطاب السياسي ، أصوله النظرية والمنهجية ، وأبعاده الإنسانية

9. عمار رجّال 190

الجزائر في كتابات " أندريه جيد "

10. موسى مريان 205

السّرِقات الشعرية وأنواعها في نظر ابن رشيق القيرواني

11. مُحَمَّد رضا بن طبولة 222

علاقات النصوص في الشعرية العربية القديمة في ضوء مفهوم التناص

ثانياً: ترجمات:

12. سيمون فريس Simone Fraisse 237

أسطورة جان دارك ، **ترجمة الأستاذ الدكتور: عبد المجيد حنون**.

أسطورة جان دارك

بقلم: سيمون فريس Simone Fraisse

ترجمة الأستاذ الدكتور: عبد المجيد حنون

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار – عنابة

أسطورة جان دارك

بقلم: سيمون فريس Simone Fraisse

ترجمة: عبد المجيد حنون

كانت أسطورة "جان دارك" موجودة قبل وجود شخصية جان دارك نفسها. ففي بداية القرن الخامس عشر، تبلور في فرنسا التي كانت تمر بأكثر فترات تاريخها سوادا، أمل في ظهور المنقذ العجيب، في الجهات الأكثر بؤسا. وكانت نبوءة قديمة قد تنبأت بأنّ امرأة ستضيع فرنسا، وأنّ عذراء من "مارش اللورين" Marche de la Lorraine ستقيلها من عثرتها. وعندما شوهدت"جان" تزحف على "أورليان" Orleans تذكر الناس النبوءة و نسبوها إلى "ميرلان العجيب" Merlin L'enchanteur. واستقبلها الشعب بحفاوة، واقتصر الشكّ فيها – إن كان ثمة شكّ – على فئة من العظماء.

وهكذا فإنّ أسطورة جان دارك لا تنتمي إلى التاريخ فقط، لأنها كانت منتظرة. إنّها حكاية رائعة دون ريب، تبدأ فيها مسيرة البطلة بالمجد وتنتهي في المحرقة، كما يحدث في حكاية ملحمية. غير أنّ هذه المحرقة ليست من إبداع شاعر، وإنما وجدت حقّا. ولذا قال "ميشلي" Michelet: إنّ "جان" خرافة حيّة . وفي الحقيقة لا ينبغي أن تكون "خرافة "لأن كل ما يتعلق بجان قابل للتمحيص. فلم يتوفر كم من الشهادات حول شخصية تاريخية، لم تتعد حياتها العامة السنتين بما في ذلك السنة التي قضتها في السجن، مثلما توفرت حول جان دارك.

و رغم أنّ الشعراء والمسرحيين أجهدوا أنفسهم في تنميق مغامراتها بطرائف خيالية، فإنّ مركزها يظل ثابتا. وشاءت سخرية التاريخ أن يمنح "جان" جلادوها مجدا خالدا: حيث ضمنت لها محاكمتها الخلود، لأنها كانت محاكمة موجهة ، وجائرة ، غير أنّ الموثقين سجلوا

دقائقها . وتطلب الأمر أربعة قرون ، كي تجمع دقائق المحاكمة ، وترتب حسب تسلسلها، وتترجم إذا لزم الأمر .

وأصبح تاريخ "جان" اليوم مدونة مهمة، لم تكشف بعد عن كلّ الزوايا المظلمة، غير أنّها تسمح لنا بإعادة تمثيل الأحداث بطريقة دقيقة، يحقّ لكاتب سيرة مدقق أن يعتز بها.

المعطيات التاريخية:

كانت المغامرة في حدّ ذاتها خارقة، فقد عزمت شابة فلاحة على جمع شمل فرنسا المشتت، وعلى إعادة الشرعية التي كان الإنكليز –الذين احتلوا جزءا من الوطن– ينازعون الملك شارل السابع عليها؛ وهذا رغم أنها تبلغ السابعة عشرة من العمر فقط.

ولدت سنة 1412م في "دومريمي Domremy" جنب منطقتي "اللورين Lorraine" و"الباروا Barrois"، من أبوين فلاحين مستوري الحال . وكانت أمية تعلمت الخياطة والنسج (وفلاحة من حين إلى آخر). يعدها الذين يحيطون بها عادية، ومع ذلك فقد نجحت في مسعاها .

ففي مدينة"بورج Bourges" أذن لها الملك بالمشاركة في العمليات العسكرية، فتسلحت بخوذة كاملة وبسيف (لم تستعمله مطلقا)، وبلواء كتبت عليه "المسيح ومريم"، وقامت بدور أساس في رفع الحصار عن مدينة "أورليان" التي دخلتها منتصرة يوم 8 ماي 1429م .

ثم تلا ذلك استعادة كل من"جارجو Jargeau" ومونغ Meung" و"بوجانسي Beaugency" وانتصارها في "باتاي Patay" (12–18 جوان)؛ وإثر ذلك ، جرت الملك إلى مدينة "رامس Reims" ليقدس ويعمد بالزيت المقدس، حسب الاحتفال التقليدي ، (وحدث ذلك يوم 17 جويلية). وبعد ذلك ، بدأ نجمها يخبو. فانهزم الجيش

الذي كان يقوده الدوق "أولونصون Alençon" أمام باريس . وجرحت يوم 08 سبتمبر. ولم يعرف فصل الشتاء إلا عمليات محدودة. ويوم 24 ماي 1430م وقعت في الأسر، عندما كانت تحاول رفع الحصار عن مدينة "كومبياني Compiegne " بمعية فرقة عسكرية صغيرة ، فأسرها دوق لوكسمبورغ؛ وبعد محاولتها الفاشلة للفرار ، سلّمها إلى الإنكليز، الذين لم يكونوا يرغبون في موتها فورا، وإنما كانوا يرغبون في إدانتها بتهمة ممارسة السحر، هادفين من وراء ذلك إلى إزالة الثقة بشارل السابع، وإلغاء تقديس"رامس" . وبعد محاكمة طويلة في مدينة "روان Rouen "، (التي كان العدو يحتلها) ، أقامتها كلّ من الجامعة التي كان يمثلها "بيير كوشون Pierre Cauchon" أسقف "بوفي Bauvais" ومحكمة التفتيش، حُكم عليها بالهرطقة أولا، ثم حكم عليها بعد ذلك، بالإلحاد بعدما انتزعوا منها يوم (24 ماي) في مقبرة " القديس أوان Saint Ouen" قولا ينم عن ردّتها لأنها استردت ملابسها الرجالية (لقد كان عهدا غريبا، قد يؤدي فيه مجرد تغيير الملابس إلى النار !).

وهكذا سلمت إلى " السلطة غير القانونية "، أي إلى الإنكليز، بدلا من تسليمها إلى سلطات المدينة حسب ما ينص عليه القانون، وتمّ حرقها يوم 30 ماي 1431م في ساحة السوق العتيق بمدينة "روان". وعليه فإنّ كلّ الأحداث المحتملة تنتمي إلى التاريخ، ومن الممكن أن تكتب حياة "جان" كتابة واقعية، لا دخل للعجائبية فيها.

ولما استعاد شارل السابع مدينة "روان" سنة 1450م، رغب في إعادة الاعتبار لجان دارك –أو بالأحرى ، رغب في إلغاء الحكم الذي صدر ضدها– غير أنّ البتّ في هذا الأمر تأخر إلى سنة 1456م.

لقد أبرز الحكم الجديد جور قضاة 1431 م أكثر من إعادته الاعتبار لجان دارك. غير أنّ الشهادات المائة وخمسة عشر التي اعتمد عليها الحكم الجديد أكدت الصورة التي تجلت

في محاكمة 1431م رغم مماحكات القضاة ومكائدهم: وهي صورة "جان" النزيهة، والشجاعة، والعنيدة، والمسلحة بالرشاد، والسريعة الردّ. ورغم ما سبق ذكره، فإن لغزا ظلّ قائما، ويتمثل في تجليات : القديس ميشال، والقديسة مرغريته ، والقديسة كاترين ، الذين نصحوا "جان" وشجعوها منذ أن بلغت الثالثة عشرة من العمر حتى يوم 29 ماي 1431م. فكانوا لبّ قضية الحكم، وكانت "جان" تكرر دون ملل: « كلاّ، إن الأصوات لم تخدعني ».

ومن الممكن أن يكون شيء من العجائبية قد تسلل إلى هذه القناعة التي أراد العقلانيون المحدثون أن يفسروها تفسيرات واقعية : كالتخيل، أو الهستيريا، أو الهلوسة؛ غير أن قناعة "جان" حقيقة ثابتة، وعلى المؤرخ أن يراعي نلك القناعة على الأقل، دون أن يقرّ بواقعية تلك الأصوات .

لم يستطع التاريخ إثبات المعجزة، غير أن معتقد الناس في مرحلة معينة حقيقة تاريخية. وعليه، فإن المعركة لم تكن بين العقل والإيمان، لأن القضاة لم يكونوا عقلانيين، فقد كانوا يؤمنون بدورهم بالخوارق، وبصفة خاصة عندما يرون وراء الفعل يد الشيطان. ولذا كان همهم أن تقرّ المتهمة بوجود علاقات تربطها مع الشيطان حتى يحق لهم حرقها. غير أن "جان" رفضت الاعتراف المطلوب منها.

وفي القرن العشرين، لا نستطيع عدم مقارنة قصتها بقصة حقيقية أخرى، هي القصة التي أوردها "أرتور لوندون Arthur London" في مصنفه "الاعتراف"، وتتمثل في أنّ محكمة، خليقة بمحكمة التفتيش، أرادت الحصول بكل الوسائل (ما عدا التعذيب الجسدي، والحقيقة أنّ "جان" لم تعذب جسديا هي الأخرى) على اعتراف باقتراف جريمة وهمية لخدمة أغراض سياسية.

أسطورة جان عبر خمسة قرون:

لقد تنوعت التأويلات لدور"جان"، لا محالة، عبر مرور الزمن: فقد صنع كل من تطور الدهنيات، واكتشافات المؤرخين، وإبداعات رجال الأدب، العشرات من "جان دارك" للواتي ينتمين إلى تاريخ الأفكار أكثر من انتمائهن إلى سيرة العذراء الأصلية.

ونبدأ، قبل كل شيء، بنبذ المغالطات. فقد قيل إنّ "جان" لم تمت، لأنها قد تكون فرت بمساعدة "كوشون" عبر نفق (لا أثر له)، وأحرق تمثال بدل منها أو أحرقت إحدى البئيسات. وقيل إنها بعثت من ألسنة اللهب.

وفي سنة 1436 م، ظهرت "جان" مزيفة تحمل اسم"جان أرمواز Jeanne des Armoises"، وأحرزت على شيء من التقدير، إلى درجة أنّ إخوة جان دارك اعترفوا بها ؛ غير أنها اعترفت بخدعتها أمام برلمان باريس سنة 1440 م. ثم ظهرت مغامِرة أخرى تحمل اسم "جيهان سيرمايز Jehanne de Sermaize" وانكشف أمرها سنة 1457 م . وبلغ في وقت من الأوقات عدد المغامرات من هذا النوع ثلاثة في ناحية " أنجو Anjou " وحدها.

ومؤخرا، ظهر تخريف آخر : فقد عرض سنة 1802 م (بييركاز Pierre Caze)، رئيس دائرة " بيرجراك Bergerac " علنا ، فرضية نغولة "جان" التي يمكن أن تكون ثمرة زنى "علنا ، فرضية نغولة "جان" التي يمكن أن تكون ثمرة زنى "يزابو بافيي Isabeau de Baviere "مع "لويس أورليان Louis d'Orléans"، وبذلك تكون أختا غير شقيقة لشارل السابع ، ربيت منذ ولادتها، و وجهت لكي تقوم مؤخرا بدور عظيم. وهذا بهتان شنيع تدحضه الوقائع (لأن المولود الذي أنجبته "إيزابوا" ميتا سنة 1407م كان ذكرا، وسمي فيليب). وحتى لوكانت هذه الرواية صحيحة: فكيف يقبل شارل السابع أن يترك أخته تموت حرقا ؟ غير أن هذه الرواية وجدت في القرن العشرين أنصارا لها. وردت عليهم

"ريجين بيرنو Regine Pernout " ردّا ملائما، ضمن بحثها "جان ضد أتباع كوشون Jeanne contre les Cauchon "(1970 م).

العذراء المحاربة:

من المستحسن أن نتعقب عبر الزمن شهادات عبادة "جان" التاريخية بدءا بشهادات التبدل، ثم الانحطاط، ثم شهادات عزّ المجد.

ونستطيع أن نميز بالتقريب عدّة اتجاهات فيما يخص ذلك عبر القرون. لقد تطورت سيرة"جان" في البداية بعيدا عن المعرفة المستمدة من النصوص. وكان الناس يتذكرون أعمالها الباهرة، ويتعجبون كيف استطاعت امرأة أن تقوم بها؛ فيحتفلون بالمحاربة أو بالأمازونية أحيانا –في نظر البعض– وبالتالي، كان الطابع الملحمي لتجربتها الحربية الدافع الأساس وراء كلّ ذلك.

كانت "جان" في البداية موضوع عبادات محلية. حيث قامت مدينتا "بورج" و"أورليان" بتنظيم حفل ديني بمناسبة وفاتها. واستمر هذا التقليد في مدينة "أورليان" حتى يومنا هذا .كما استمر الناس في بلدة "دومريمي" التي بقي فيها أخوها "جاك" يحافظون على ذكراها حفاظا دينيا. أما الكنيسة، فالغريب في الأمر، أنها لزمت الصمت نحو "جان"؛ رغم أن المستشار "جيرسون Girson"، الذي استدعي للتشاور حول أمرها، كان قد انحاز إلى صفها منذ 1429م، غير أنه مات بعد أشهر معدودة، فلم يحفل أحد بكلامه.

أما بالنسبة إلى الشعراء، فقد ظلت "جان" شخصية حية جدا، إذ خصتها، قبل وفاتها، الشاعرة "كريستين دوبيزان Cristine de Pisan"– المتوفاة سنة1431م – بأبياتها الأخيرة، لأنها تجسد في نظرها أرقى الفضائل الأنثوية:

"صبية ذات السادسة عشرة من العمر "Une fillette de seize ans

لم تثقلها الأسلحة A qui armes ne sont pesans

N'est ce pas chose fors nature أليس أمرا عجيبا؟

Et devant elle vont fuyons إذ أمامها سيفر

Ses ennemis [...]" أعداؤها [...]"

(Le Ditié de Jeann d'Arc. Juillet 1429م قول جان دارك، جويلية)

وكان تأليف مسرحية "لغز حصار أورليان" أكثر وضوحا، من حيث اهتمام الشعراء بـ "جان". فقد شرع في نظمها سنة 1435 م، واكتملت ما بين 1453 م و1456 م –أي فترة إعادة الاعتبار– وقدمت إلى الجمهور في مدينة " أورليان " عدة مرات، وكانت تحوي 20530 بيتا، وقام بآدائها قرابة المائة ممثل. فحفظت مجد "جان" طيلة قرون.

وبعد مائة سنة، بقيت ذكرى "جان" قريبة. وكان "فرانصوا فيون F.Villon" قد خصها بالمقطع الأكثر تأثيرا من مقاطع " أنشودة سيدات الزمن السابق " (1461م):

"أين بيرته التقية، وبياتريس وعليسة Berte au grand pié, Biotris, Alis

وجيهان طيبة منطقة اللورين Et Jehanne la bonne Lorraine

التي أحرقها الإنكليز في روان؛ Qu'Englois brulerent a Rouen;

أينهن، أو أين العذراء العظيمة ؟ Ou sont elles, ou vierge souveraine ?

ولكن، أين ثلوج العهد الماضي؟ Mais ou sont les neiges d'Antan ?

كما اهتم بجان دارك كتاب الأخبار والسير. ففي منطقة اللورين، أدمجت مغامرتها ضمن "سيرة اللورين"، وهي سيرة شعرية نظمها، في حدود سنة 1480م، "أدواق" منطقة "برغونيا Bourgogne"، الذين أسندوا إلى "جان" كل الانتصارات التي حدثت قبل 1431م أو بعد ذلك ، دون أية إشارة إلى الأصوات أو المحاكمات .

وابتداء من القرن السادس عشر، لم تعد "جان"مجرد ذكرى، بل أصبحت وجها أسطوريا بعيدا، تتغير مهمتها حسب الموجات الأدبية أو الأهواء السياسية. ومنحتها مصنفات كثيرة مكانة ضمن النساء الفضليات اللائي يشرفن جنس الإناث، مثل مصنف "آلان بوشار Alain Bouchard": "مرآة النساء الفضليات" 1546 م)، الذي غذى أحاديث السيّدة "دوسكوديري De Scudery". وظهرت من جهة أخرى تأويلات خبيثة، فسرت قصة "جان" تفسيرا دنياويا، ما عدا "فاليران دولافاران Valeran de La Varanne" الذي استعمل في ملحمته اللاتينية كل التعابير البلاغية الجميلة للتنويه بملحمة "جان"، ضمن مصنفه: "بطولات المحاربة المجيدة جان عذراء فرنسا" 1516 م .

لقد بدأ الشكّ في مهمتها السماوية، أو حتى في عفّتها: فرأى "جيرار دوهايان Gérard de Haillan"، ضمن كتابه " De l'estat et Mercy des affaires de France 1516 " الذي يمكن عدّه أول تأريخ وطني لنا ، أن"جان" كانت عشيقة السيد "بودريكور Baudricourt" أو "دونوا Dunois" لقيط أورليان. أي أنها كانت مجرد أداة في يد السياسيين.

ويضاف إلى ما سبق ذكره، مواقف البروتستانتيين، الذين حطّموا سنة 1567م تمثالها في مدينة أورليان، بدعوى أنها تنحو نحو زعامة الكاثوليك وأعضاء الرابطة المقدسة (Les ligueurs) .

أما من جهة الإنكليز، فلا يمكن أن ينتظر أي تعاطف معها.فقد صورتها مسرحية هنري الرابع، المسرحية الأولى المنسوبة إلى شكسبير (والتي ينازعه فيها روبرت غرين Robert Greene) بأنها ساحرة، ساعدتها الشياطين في تحقيق منجزاتها، وأنّها بغي حبلى من شارل السابع أو من أي أمير آخر (1590م).

و رغم ما سبق ذكره فإن المؤرخين الجادين تعمقوا في تاريخ العذراء؛ فقد نوّه القاضي "إيتيان باسكيي Etienne Pasquier" بتلك التي "لها دين في عنق فرنسا"، ولاحظ بأسى: "أن فرنسا لم يسعفها أحد قطّ مثلها، وأنّ ذكرى امرأة لم تمزق مثل ذكراها." (أبحاث عن فرنسا 1580 م). وفي السنة نفسها زار "مونتاني Montaigne" منزل "جان" في بلدة "دومريمي ".

وفي القرنين السابع عشر و الثامن عشر، استمر إجلال "جان" على حاله عند الناس البسطاء .كما استمر الباحثون في أبحاثهم وفي جمع وثائق المحاكمة؛ مثل" إدمون ريشير Edmond Richer" الذي ألحّ على أهمية تلك الوثائق، واعتنى بحفظها، فجمع أربعة كتب ضخمة حول "تاريخ العذراء" (1625 م – 1630 م). ورغم أن تلك الكتب لم تنشر يومئذ، إلا أنها ستكون مرجع "لونغلي دوفريسنوا Lenglet dufresnoy" لتأليف كتابه"تاريخ جان دارك، العذراء، والبطلة الشهيدة"(1753م–1754م)، ومثل المؤرخ المجتهد "كليمون دولا فيردي Clement de L'Averdy" الذي جمع وثائق جمة (ملخصات ومقتطفات من مكتبة الملك الثالث، 1790م). والملاحظ أن الجميع مجّد "جان".

وحسب مفارقة، قد لا تكون عجيبة، فإن الشعراء كانوا كلما ازداد تاريخ "جان" اتضاحا، ازداد تململا منها. فبغض النظر عن مصنف (العذراء أو فرنسا المحررة، 1656م) لـ "شابلان Chapelain" الذي كانت تدفعه نوايا نبيلة : مثل كتابة ملحمة حول موضوع حديث، والتنويه ببوطلة النساء، والإقرار نهائيا ببطولة جان الخالدة – غير أن صياغته جعلت معاصريه ينفرون منه مسرعين إلى نسيان ذلك الشعر التافه المحشو بالميثولوجيا الكلاسكية– نجد مسرحية "فولتير Voltaire" الشعرية "عذراء أورليان" التي شرع في تأليفها سنة 1738 م، ونشرها سنة 1762م، والتي قد تكون جاءت رد فعل؛ فهي ملحمة مضادة، شوه فيها المؤلف شخصية "جان" مثيرا بذلك فرحة الملحدين وأعداء

الكنيسة؛ رغم أنه كان قد أقرّ بأفضال " جان " في مقاله حول " الأخلاق " (1753 م) وأكّد أنّها، بعدما أنقذت ملكها، كانت أهلا لأن تقام لها " الهياكل في الأزمنة البطولية ". غير أنّ فولتير لم يكن يتحرج من فعل أي شيء يزعج الكنيسة. وعليه، فإنّ عذراء فولتير،شعر ساخر رملي المذاق، لم يعد يقرأها أحد، ويصعب الحكم عليها لأن الطبعات المسروقة شوهتها (انظر عذراء أورليان، طبعة محققة لجان فيركرويس، 1970م).

وتظهر " جان " في الطبعة الوحيدة التي تبناها فولتير، خادمة في خان (وكان هذا الخطأ موجودا عند "بوسوي Bossuet" من قبل)، وهي ابنة راهب فاسق، تتمثل أعمالها المثيرة أساسا في دفاعها عن عذريتها ضد الحمار –على وجه الخصوص– الذي كانت تركبه، والذي ساعدها، بقدرته على الطيران، في فك حصار أورليان. وبعدما تحررت المدينة، تحررت هي الأخرى من نذرها بالبقاء عذراء، ومنحت نفسها إلى " دنوا ".

لقد حظي هذا التهريج – الذي احتلت فيه " أنييس سوريل Agnes Sorel" مكانة لا تقل عن مكانة " جان "– بالنجاح في زمن وصلت فيه سمعة " جان " إلى الدرك الأسفل. فقد نفى عنها "بومارشي Beaumarchais" كل بطولة، ونعتها الأنسكلوبيديا بأنها بئيسة حمقاء لعب بها المحتلون. ولخّص "مونتسكيو Montesquieu" قصتها في مجرد عملية غش. أما "روسو Rousseau" فهو الوحيد الذي قدم نصا حول "المحاكمات" إلى جمهورية جنيف، والسبب في ذلك، أنه كان الأقرب إلى الشعور الشعبي دون ريب .

ونتيجة لرد فعل جديد، كان فولتير سببا أيضا في انتعاش الاهتمام بـ " جان ". فعلى ضوء الرومانسية الناشئة أعاد الإنكليز والألمان لشخصية "جان" اعتبارها، استنكارا لوقاحة فولتير نحوها.

جان رومانتيكية:

لقد تحمس "روبر سوتاي Robert Southey" – المغرم بالأفكار الثورية – للعذراء التي كانت تمثل عنده الشعب في مواجهة الأقوياء (جان دارك 1795 م) فرفض أن يقرأ لفولتير عنها؛ رغبة منه في الاعتذار عن بلده الذي أحرقها، وصفق لأبيات شيكسبير؛ فجاء أثره الملحمي منوها بها جمهورية و وطنية، لأنها نموذج للفضائل المدنية، أعلنت في قداس" رامس " حقوق الإنسان.

وفي ألمانيا، نظم " شيللر Schiller " إحدى أفضل المسرحيات المستوحاة من الأسطورة: "عذراء أورليان، 1800م" سماها " تراجيديا رومانتكية " معتذرا بذلك عن عدم تقيده بالدقة التاريخية. فرد بدوره وبطريقته على اتهامات شيكسبير: فصورها ضحية حكم قضائي بدعوى ممارستها السحر، فاضطرت تبعا لذلك إلى الهرب وسط الاستهزاء بها، وحطمت بأعجوبة أغلالها لتموت في ساحة الوغى بجلال. وعرفت المسرحية نجاحا سريعا، وأصبحت نموذجا اقتدى به العديد من المسرحيين الأوروبيين .

وكل ما يؤاخذ عليه" شيللر " أنه شوه طابع البطلة عندما طعم قصة"جان" بمغامرة عاطفية (حيث جعلها تغرم رغما عنها بالإنكليزي ليونيل Lionel). فإذا كان الخيال المنمق محبذا في القصة، فهذا لا يعني تشويه جوهرها المتمثل في عفة " جان " التي أجمع عليها كل الشهود، والتي لولا أهميتها لما كانت الهدف الأساس لحملة الإنكليز التشكيكية، ولما سعت المحاكمة إلى إثبات افتقار " جان " إليها.

أما في فرنسا، فقد حدث في بداية الثورة شيء من التردد نحوها: فقد تساءل بعضهم: ألم تساهم العذراء، بمساعدتها الملك، في الدفاع عن الملكية ؟ وعليه كاد همجيون أن يشوهوا تمثالها سنة 1793م في مسقط رأسها "دومريمي" لولا وقوف سكان البلدة ضد ذلك. وشيئا فشيئا، استرجعت صورة "جان" الوطنية مكانتها. فاستأنفت مدينة " أورليان "

منذ سنة 1803 م إحياء ذكرى محررتها، ونوه بها بونابارت، ثم أصلح لويس الثامن عشر منزلها بـ "دومريمي"، الذي أصبح ملكية عمومية، وأقام لها نصبا تذكاريا تمّ تدشينه سنة 1820 م. وثبت في قاعدته أثران أدبيان معاصران هما : تراجيديا "جان دارك في روان " لمؤلفه " لويار دافرينيي Leuillart d'Avrigni " و"الميسينيات[1] Les Messeniennes" الرثائية للمؤلف: " كازيمير دولا فينيي Casimir de la vigne" (1818 م).

وفي سنة 1843 م أهدى "لويس فيليب" ملك الفرنسيين إلى "دار جان دارك" تمثالا للبطلة نحتته ابنته الأميرة "ماري".

وعلى الرغم من النتاج الأدبي الغزير الذي تسببت فيه " جان " فإن أعظم الرومانتيكيين الفرنسيين لم يخصوها بأي أثر يستحق الذكر ، اللهم إلا إذا اعتبرنا الجزء الخامس من تاريخ فرنسا الرائع شعرا، وهو الجزء الذي مجد فيه "ميشلي" محررة " أورليان "، (وظهر سنة 1841 م ثم أعيد نشره سنة 1853 م في كتاب منفرد بعنوان " جان دارك "). ويعد هذا الكتاب أروع ما كتب " ميشلي ". فهولم يقرأ سوى رواية واحدة ومنقوصة عن المحاكمة، وهي رواية " لافيردي L'averdy "، ومع ذلك، كان تأثره عميقا جدا، إلى درجة أنه استطاع أن يغوص في شخصية " جان "، وفي " رجاحة عقلها " و" طيبة قلبها " و"ذكائها" و" نقائها ". فالعذراء امرأة خرجت من الشعب: فتوفر نتيجة لذلك كل ما من شأنه أن يثير حماس "ميشلي". فاستخلص من مهمتها ثلاثة عناصر:

أ– الوطنية: أليست هي الأولى التي أحست " بالرأفة على مملكة فرنسا "؟!

ب– حرية التفكير: فهي التي أسست، وهي على منصة الموت، "الحق في التفكير، وسلطة نداء الضمير"، مفسحة المجال لتعبير "الربّ الداخلي" وهذا تعبير منير صدر من ريشة "ميشلي" الملحد.

ج– وأخيرا، صورة الاستشهاد من أجل الغير، وتتمثل في: " تقليد المسيح، وتجلي آلامه عند العذراء "، " التي جسدت بذلك خلاص فرنسا ". وهكذا هيأ المؤرخ، الذي لا يؤمن بالأصوات الغيبية، قراءه لأن يتقبلوا قداسة "جان". وهذا الموقف رومانتيكي جدّا في عصر يرفض العقائد، رغم أنه احتفظ برغبة دينية قوية.

وفي الوقت الذي كتب فيه "ميشلي" "قصيدة" جان، كان البحاثة "جول كيشرا Jules Quicherat" قد حدد قصتها التحديد الأقرب من الحقيقة؛ حيث تضمنت مجلداته الخمسة حول " محاكمة جان وإعادة الاعتبار لها "(1841م-1849م)، زيادة عن دقائق المحاكمة المعروفة من قبل، كمية ضخمة من الوثائق باللاتينية والفرنسية، عثر عليها في أرشيفات لم تستكشف من قبل. وأصبحت تلك الوثائق منجما ينقب فيه كل الباحثين، وأدت المحاكمات إلى تغير نظرة القارئ: فانصب الاهتمام حول مأساة الخطأ القانوني، وأصبحت المأساة -بدلا من الملحمة- تدور داخل محكمة ما بين "جان" وقضاتها. ولا يوجد أفضل من محاكمة -خصوصا إذا كانت الشكوك تحوم حول طرقها- لإثارة اهتمام قارئ له دراية بخبايا الجلسة المغلقة: فأصبحنا، بفضل" كيشرا " أمام شخصية جديدة، هي " المتهمة " التي تختلف اختلافا تاما عن المحاربة المتزركشة التي ساهمت أهواء كثيرة في رسم صورتها.

لقد ساهم كلّ من "ميشلي" و"كيشرا" الملحدين، والشديدي الإعجاب بالعذراء، في الإعداد لمرحلة جديدة من حياتها المستقبيلة التي تتمثل في : "قديسة الوطن".

قديسة الوطن:

منذ 1850م بدأت عبادة "جان" تزدهر، حيث كتب الثائر "أرمان باربيس Armand Barbes"، إثر خروجه من السجن، يقول: "يتمثل أكبر مجد لوطننا في إنجابه لجان دارك " (التضامن، أول جوان 1867 م). وفي سنة 1869 م، طلب

"دوبانلوب Dupanloup"، أسقف مدينة أورليان من روما إقامة قضية تقديس لجان دارك، وبعد هزيمة 1870م أصبحت تمثل "مَلَكُ الثأر"؛ وتنافس عليها الشعراء والرسامون بشدة ، وصارت صورتها الموضوع المفضل في الفن "المتحذلق". وأصبحت عنصرا من عناصر المجمع المدرسي في الجمهورية الثالثة.

وفي سنة 1884م دعا الجمهوري "جوزيف فابر Joseph Fabre" إلى إقامة عيد وطني مدني صرف مخصص لجان، غير أن تلك الدعوة تطلبت عشرات السنوات لكي تتحقق، شأنها شأن الكنيسة في ذلك من قبل . وتبقى جان، مع مرور الزمن محل خلاف مابين كل الأحزاب، إذ رغم اقتناعهم جميعا بوطنيتها ما بين 1870 م و 1914 م، إلا أنهم اختلفوا حول قداستها. والمثال على ذلك : أن "لوسيان هير Lucien Herr "نعت يوم 14 ماي 1890 م في جريدة " الحزب العمالي"، "جان"بالاشتراكية فقال: "إنها الشعب الذي أنقذ فرنسا ، لأول مرة في التاريخ. وعلى الكنيسة أن تتركها لنا [...] فلكم أسقفكم. ولنا ابنة الشعب". وفي سنة 1908 م صور "رومان رولان Roman Rolland" شخصية "جان كريستوف"- الذي أثارته قراءته لميشلي "مبشرا بجان"(المعرض في الساحة). وفي سنة 1910 م نوه "جان جوريس Jean Jaures" بمهمة جان " العالمية تنويها قويا (الجيش الجديد). وفي سنة 1913 م حمد الفيلسوف" آلان Alain " لجان "معجزتها في الإدارة، التي تدين بكل شيء للإنسان، ولا تدين بأي شيء للسماء "(أحاديث 6 ماي. Propos).

وفي هذا الجو المفعم بالحماس المشترك نحو "جان"، لم يكن أمرا غريباً، أن يكتب "شارل بيغي Charles Peguy".- الشاعر الاشتراكي الشاب، وابن مدينة أورليان- بدوره سنة 1897 م، مصنفاً حول "جان دارك" وهو ثلاثية ضخمة أهداها إلى "كل اللواتي وكل الذين سيموتون موت البشر، من أجل إقامة الجمهورية الاشتراكية العالمية".

فصور في المسرحية الأولى التي تحمل عنوان "في دومريمي"، جان دارك "طفلة نشيطة يؤرقها شقاء بلدها وآلام المسيح ورعب عذاب النار. وصورها في الثانية التي تحمل عنوان "المعارك" تجسد الشعب، ذلك الشعب الذي التحم مع المحاربين، وهاجم وأحرز على انتصارات سارة. أما المسرحية الثالثة، وتحمل عنوان "روان" فتتضمن ذكراً مطولاً لعذاب جهنم أسنده "بيغي" السيد "إيفرار Evrard " ضمن مشهد مقبرة "القديس أوان" وهو ذكر أثار مخاوف "جان" حتى شكت في خلاصها. وتضمنت هذه المسرحية نصوصا ملحمية وتراجيدية جميلة، كما تضمنت نقائص أيضاً حيث لم يستطع "بيغي" الحفاظ على النبرة نفسها حتى النهاية، وتراجع أمام مشهد عملية الحرق. و رغم الصمت شبه التام الذي قوبلت به هذه الثلاثية ، إلاّ أنها تبقي أكثر الآثار المخصصة لجان تأثيراً ؛ فالعجائبي لا دور له ؛ فما أثار "جان" في البداية حدث تاريخي هو: رفع الحصار أمام جبل القديس ميشال. ولكن الاشتراكي الشاب ، الذي يدعي الإلحاد، كان قد جعل من "جان"(النظام الداخلي الكبير) لحياته ونتاجه. فعندما أعاد سنة 1910م، بعد عودته إلى المسيحية صياغة المسرحية الأولى لتصبح "لغز رحمة جان دارك"، وهي عبارة عن تأمل طويل لجان نادراً ما تقطعه ردود، لم يجد صعوبة في بلورة الموضوعات نفسها: الخلاص، النار، وعذاب النار، واقتحم فيها سرداً عن حكاية آلام المسيح ، فركز على التوازي الذي اكتشفه ميشلي مابين استشهاد والمسيح واستشهاد "جان". و اقترح أن يتبع هذا اللغز الأول – الذي استقبله النقد بحفاوة – بحوالي خمسة عشر لغزاً آخر حول قدر، وقداسة، وشهادة (أعظم قديسة وجدت). وإذا كان الزمن لم يتح له –كما كان يرغب– أن يكون "كاتب" بطلته، و"خادمها الأمين" فإنه بقي بالنسبة إلى القرن العشرين، أشهر من تغنوا بجان .

كما اختار "ليون بلوي" Léon Bioy – معاصر بيغي الذي لم يكن صديقا له– بدوره "جان" بطلة. فقد أنهى سنة 1915 م "عندما كان ينتظر قيام الساعة " كتابا بعنوان "جان دارك و ألمانيا " كان نتاج تأمل طويل؛ صوّر فيه الدنيا تصويرا بسيطا، وصوّر

وطنه أمة مختارة: « فلا شيء عند الله سوى فرنسا ». حيث صور "جان" نائبة عن المسيح في الأرض لمصلحة ملك فرنسا. إذ بفضل استشهادها تحولت إلى زهرة الآلام الرائعة، وحقّ للعصر الوسيط أن ينتهي بعد ذلك. وهكذا تعد "جان" بالنسبة إلى "بلوي" و"بيغي" أسطورة شخصية.

وعمل "موريس باريس" Maurice Barres أكثر من غيره على تجسيد ذكرى "ابنة اللورين الطيبة" رغم أنه لم يستطع أن يكتب عنها الكتاب الذي حلم به . فقد كان – وهو اللاأدري ورفيق درب الوطنيين – موزعا ما بين "جان" سلتية، تنحدر من أرض وثنية، وبين "جان" التي ألهمها الربّ والتي يؤمن بها رفاقه؛ حتى بلغ حدّ الحديث عن « هذه الجنية التي جعلناها قديسة » (الغالي Ie Gaulois 1908/01/28).

و رغم ما سبق ذكره، فإن الفضل يرجع إلى جهود "موريس باريس"، المتينة في تحقيق أمنية "جوزيف فابر" سنة 1920م، حيث استطاع أن يجعل البرلمان يصوت ويقرّ بعيد وطني على شرف"جان".

وإذا كان هذا التصويت قد تأخر كثيرا ، فيرجع السبب في ذلك، إلى أنّ أحزاب اليساركانت تنظر شرزا إلى استحواذ الكنيسة على"جان". فقد كانت البابوية قد أعلنت سنة 1894 م أن العذراء جليلة، ثم أعلنت سنة 1909 م أنها من الأبرار، وهذا ما جعل أعداء الكنيسة ينزعجون. ومما يدل على ذلك: قضية "طالاماس" Thalamas (1904 م)، وهو أستاذ في ثانوية "كوندورسي" Condorcet أنكر أمام تلامذه حقيقة الأصوات التي كانت تسمعها "جان"، فتعرض إلى التوبيخ والنقل من منصبه تحت ضغط جمعية الوطنيين[2]. وبقي معاقبا حتى سنة 1908 م، فسمح له بتقديم درس حرّ في السوربون.

إنها لفضيحة جديدة صادفت نشر مسرحية "حياة جان دارك" لـ " أناطول فرانس Anatole France" الذي اهتم بنفسية العذراء منذ 1876 م بغية تفسير مسألة "الأصوات" تفسيرا عقليا؛ ولأجل ذاك استشار الأطباء النفسانيين كالدكتور "جورج دوماس Georges Dumas"، و استنتج أن الأصوات التي كانت "جان" تسمعها هي "أصوات ضميرها"، وأن "جان" عرافة، تسير نائمة، وتهذي. غير أن معاداته للكنيسة كانت تدفعه في الوقت نفسه إلى الشك في أنها كانت لعبة بين أيدي القساوسة، الذين دبروا "حيلة تقية" لإيقاعها في حبائلهم؛ وهذا ما أحدث ثنائية في التفسير، أساءت إلى انسجام الأثر. ولقد فند المؤرخ الإنكليزي "أندرولانغ Andrew Lang بدقة كتاب " أناطول فرانس" في كتاب بعنوان " جان دارك السيد أناطول فرانس" صدر سنة 1909 م .

ومقابل هذا، فقد زوّد "أناطول فرانس" بالحجج الراديكاليين والماسونيين الذين كانوا يشاهدون بامعتاض عناصر الحركة الفرنسية تحتفل في الثامن ماي من كل سنة بقديستها أمام التمثال الذي نحته لها " فريميات Frimiet" في ساحة الأهرامات .

لقد وضعت الحرب العالمية الأولى حدّا لهذه الخصومات : حيث تقمصت "جان" مرة أخرى رمز الوطن في خطر. وكانت الكنيسة سبّاقة إلى ذلك: إذ في السادس عشر ماي من سنة 1920م نادى "بونوا الخامس عشر" بجان قديسة وزعيمة لفرنسا، بغية تحويل الأنظار عن موقف الفاتيكان المحايد خلال الحرب. ثم تبعته الحكومة الفرنسية بعد قليل: حيث أصبح عيد "جان" بتاريخ 24 جوان "عيد الوطنية". وأدى هذا التكفل المزدوج بـ "جان" إلى مصالحة مؤقتة حولها ما بين المتعصبين لها والمتعصبين عليها.

جان دائما:

كان من الممكن أن يخشى على وجه "جان" من أن تمسخه تلك التشريفات السامية، وتحنطه في أكفان باردة . وعلى الرغم من أن السلميين Pacifistes شوهوا ملامح الوطنية التي وسمت عبادتها في العشرينيات ، وأنّ الملحدين لم يستسيغوا أن تسترجعها الكنيسة ، فإن شخصيتها، الفريدة من نوعها، ما فتئت تثير اهتمام الأدباء و السينمائيين .

لقد أحدثت منشورات " كيشرا " تحولا في الأسطورة التي ترسخت بعد 1920 م؛ فأصبحت محاكمة 1431 م تحتل مكانة أهم من سنوات الدعوة أو من حملات العذراء العسكرية. ومن جهة أخرى، فقد خلق اصطباغ المجتمع باللائكية شيئا من عدم الاكتراث بالأصوات: اللهم إلا "كلوديل Claudel" الذي أنطق تلك الأصوات في مسرحيته الغنائية "Oratorio" التي لحنها " هونيغر Honegger "، وتحمل عنوان (جان دارك في الحطمة، 1938م)، غير أنّ عرضه أعد في الأصل ليكون أوبرا، وهي لا تشترط الاقتراب من الحقيقة. أما بالنسبة إلى العديد من معاصريه، فإن صراع "جان" مع قضاتها أولى بالاهتمام. فـ "جان" هي الطفلة التي واجهت شيوخ الدين، كما صورها "بيرنانوس Bernanos"- خليفة بيغي- في مقال رائع بعنوان "جان المرتدة والقديسة (1934 م)": « وآية العجب، أن الطفولة، لم تمثل هكذا أمام محكمة عادية، إلا مرة واحدة، قد تكون الوحيدة في الدنيا ».

وخلال الحرب العالمية الثانية، أصبحت"جان" أخيرا مثيلا للمحاربين في الظل: فقد رآها "كلود فيرموريل Claude Vermorel"، الذي كان يكتب في فرنسا المحتلة، نموذجا للمقاومة (جان معنا، 1942 م). أما عند "أنوي Anouilh" فهي الصبية « التي تقول: لا »، رافضة السعادة التافهة التي وعدها بها شخص مثل "كوشون" بطريقة شبه أبوية، (القبرة، L'Alouette 1953). ويعد عنوان (جان والقضاة) الذي عنون به

مسرحيته سنة 1949 م خلاصة هذا التوجه العام، الذي كانت محاكمات موسكو توضحه بجلاء : خصوصا وقد كنّا وقتذاك في خضم الحرب الباردة.

ولكي ندرك كيف يمكن أن يتبنى كل من الفرديين و المحافظين معا "جان"، لا بدّ أن نرجع إلى "بيرنادشو Bernard Shaw" و مسرحيته (القديسة جان 1923م). التي بدأ في المقدمة بالتأكيد على أمرين هما :

أ) أنّ جان كانت من الشهداء البروتستانيين الأوائل.

ب) إنها واحدة من رواد التبشير بالوطنية.

ويتضح هذان الأمران من خلال نقاش مطول دار ما بين "كوشون" والإنكليزي "وارويك Warwick"، حيث تنبأ "كوشون" بمقدم "لوثر[3] Luther"، و انتصار الرشاد الفردي أمام سلطة الكنيسة الكاثوليكية؛ ولم يخش تسمية البدعة باسمها: أي البروتستانية. أما "وارويك" فكان، من جهته، يخشى ظهور فكرة الأمة التي ستمنح الملك (أو الدولة) كل الصلاحيات على الإقطاعيات: لأنه يخشى، من وراء ذلك من "روشيليو Richelieu ".

و يوضح هذا التحليل العميق جدا كيف يمكن أن يتبنى جان رجال يبدو أنهم مختلفون جدا عن بعضهم البعض: كالوطنيين والمعارضين.

لقد جسدت "جان" أيديولوجيات متناقضة في بعض الأحيان، فهي : (جان المسيحية الطيبة/ وجان الرافضة للكنيسة؛ وهي التي لمت شمل فرنسا/ والثائرة على السلطات القائمة): والسبب في ذلك أن المؤلفين صوروها حسب قناعاتهم الخاصة (بيغي، أناطول فرانس، بيرنانوس)، فمن هي "جان" التي تثيرنا اليوم أكثر ؟ إن الفضل في صورتها المفضلة في القرن العشرين ليرجع إلى السينما. فمن بين حوالي عشرين شريطا تم استيحاؤها من قصتها، يجدر بنا أن نذكر شريط الدانماركي " كارل دريير Carl Dreyer " (آلام جان دارك،

1928 م)، الذي يعد من روائع السينما الصامتة ؛ كما نذكر شريط "روبير بريسون Robert Bresson " (محاكمات جان دارك، 1962 م) ولقد ركز كل واحد منهما الحدث على الأيام الأخيرة، أو حتى الساعات الأخيرة من احتضارها، متخلين عن الديكورات أو مقللين من شأنها، ليفسحا المجال أمام الوجوه الصديقة أو العدوة التي كانت حالاتها الانفعالية كالحقد، والقلق، والرأفة، والحيرة، ترتسم على محياها.و بالتالي، يغوص بنا الشريط الصامت و الناطق في حوار دقيق، متمهل و حريص عندما يتعلق الأمر بالآلام، و متسرع بوضوح، وقاطع في المحاكمات، مؤديا لا محالة إلى نهاية مأساوية.

وتنبع من "جان" حياة داخلية قوية، إلى درجة أن بعضهم يراها حضورا صوفيا. و لا شك أن لغة عصرنا هي الوحيدة القادرة على تزويدنا بـ "جان" حية، لها محاسنها ولها مساوئها، وحية حياة عنيفة إلى حدّ الموت..

الهوامش:

1- الميسينيات: نسبة إلى منطقة مسينيا الإغريقية.

2- جمعية الوطنيين: Ligne des Patriotes: جمعية فرنسية تأسست سنة 1882م، وساهمت في الحملة ضد "دريفوس Dreyphus"، وكانت من دعاة الأخذ بالثأر من ألمانيا . من الذين ترأسوها الأديب موريس باريس. تميل إلى التعصب الوطني والديني (المترجم).

3-لوثر مارثان: 1546/1483م، مصلح ديني ألماني، ثار على الكنيسة الكاثوليكية، وعلى سلطة رجالها، وكان له دور كبير في نشأة البروتستانية. (المترجم).

ببليوغرافيا موجزة:

1- Jules Quicherat : Procès de condomnation et de réhabilitation de Jeanne d'Arc, 5 vol, société de l'histoire de France ,1841-1849.

2- Georges et Andrée Duby : Les procès de Jeanne d'Arc, coll Archives, Paris, 1973.

3- Regine Pernond : Vie et mort de Jeanne d'Arc, hachette, 1953- Jeanne d'Arc par elle-même et par ses témoins, Ed du Seuil, 1962.

-Jeanne d'Arc, coll, Que sais je? Puf.1981.

4- Pierre Marrot : De la réhabilitation à la glorification de Jeanne d'Arc, In mémorial du Veme centenaire de la réhabilitation de Jeanne d'Arc, Paris, 1958.

5- Jeanne d'Arc à l'écran, numéro spécial des études cinématographiques, Paris, Minard, 3 =e trimestre, 1962.

6- Jeanne La bonne Lorraine à Comremy, Golmar, éd. S.A.E.P.1980.

يصدر المخبر العدد الرابع من مجلته ، بعدما سلخ من عمره ثلاثة عشرة سنة أرسى فيها دعائمه وهياكله، وأنجز عدداً من مشاريع البحث، والنشاطات العلمية وكوّن عددا معتبرا من طلبة الماجستير والدكتوراه في مجالات ذات صلة وثيقة بطبيعة المخبر، وبذلك أصبح يتوفر على طاقات و كفاءات تمكّنه من إصدار مجلة يريدها علمية أكاديمية تعمل من أجل التراكم المعرفي في الأدب العام والمقارن وكلّ ما يتصل به.